مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

قصيدة المتنبي
غيري بـأكثر هذا الناس ينخدع
(دراسة حِجاجية)

د/ عبد العزيز بن محمد بن هديب آل عبد الله(*)

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحابته الكرام أفضل الصلوات وأتم التسليم، ثم أما بعد ،،،

فعندما نحاول معرفة المعنى اللغوي لكلمة الحجاج من خلال المعاجم فإن الحجاج والمحاجة مصدران للفعل حاجج، جاء في لسان العرب: " حاججته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها والحجة البرهان، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة ".

يعد الدرس الحجاجي (Argumentation) مثمراً عند مقاربة بعض القصائد؛ لأنها تقوم داخلها على البنية الحجاجية، ومعلوم أن الحجاج باب رئيس من أبواب النظرية التداولية، بل إنه ليعد أحد أهم اركان التداولية الى جانب نظرية الأعمال اللغوية، وذلك أننا نتكلم عامتا بقصد التأثير وهذا هو منطلق نظرية ازفالد ديكرو في الحجاج وهي تحاول أن تبينا أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية تظهر في بنية الأقوال نفسها وفي المعنى وكل الظواهر الصوتية، والمعجمية والتركيبة والدلالية.

وحتى لا تعتمد المعالجة على ليّ أعناق النصوص واعتساف المعنى لا بد أن يفحص الناقد النص أولًا؛ ليرى مدى استجابته.

وقد لمست في قصيدة المتنبي **غيري بأكثر هذا الناس ينخدع** قوة حجاجية تستحق الدراسة؛ لأنه فيها يمدح قائد جيش مهزوم، ويعتذر له، فكيف حوّل المتنبي الحدث من هزيمة إلى نصر، وكيف تمكن من الاعتذار عن الهزيمة، هذا ما ستكشف عنه هذه الدراسة.

لقد أشار أبو شامة المقدسي في كتابه **الروضتين** إلى هذه القصيدة ذاكرا أن ابن أسعد الموصلي في قصيدته **ظبي المواضي وأطراف القنا الذبل** قد حذا حذو المتنبي، يقول: **حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله: غيري بأكثر هذا الناس ينخدعُ؛ فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون، وقد أحسنا عفا الله عنهما**(١).

(*) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة الملك سعود- المملكة العربية السعودية
abdullaziz.m.h@gmail.com

(١) نشر الدراسة على موقعه في الشبكة العنكبوتية.

وقد أنجز الأستاذ الدكتور خالد الجديع – رحمه الله – دراسة عن قصيدة ابن أسعد من الزاوية الحجاجية(٢)، وفي ظني أن دراسة النص الأصلي لها أهمية كبرى، حيث إنها الحافز إلى إنشاء ابن أسعد قصيدته.

يعد نص المتنبي أساساً في بابه، يستحق منا التدبر وفق أنواع الحجج، وفي زاوية الروابط والعوامل الحجاجية التي لجأ إليها المتنبي، مع عدم إغفال الظروف والأقطاب التلفظية والسلم الحجاجي في النص.

ولعل الدافع الأقوى أيضا لمقاربة هذه القصيدة يعود إلى قلة الدراسات الحجاجية المتعلقة بالشعر، نظراً لقيامه على التخييل، لكن هذا الحكم ليس دقيقًا، فهناك قصائد لحمتها وسداها تقوم على الحجاج.

ولا أقصد هنا بالحجاج ما قدمه أرسطو، وإنما المنهج الذي يرى أن كل نص لا يخلو من حجاج قل أو كثر.

يُعَدُّ الحجاج أحد أهم المظاهر البيانية التي ينهض عليها خطاب الشعر العربي، إذ يتجاوز في بنيته حدود الزخرف اللفظي ليصبح وسيلةً لإقامة البرهان وتثبيت الرأي وإقناع المتلقي. ولا يخفى أن شعراء العربية الكبار، ومن أبرزهم المتنبي، قد استثمروا هذا البُعد الحجاجي استثماراً عميقًا، فحوّلوا النص الشعري إلى ساحة تتصارع فيها الحجج، وتتبادل فيها الأطراف الحاضرة أو المتخيَّلة الردود والمواقف، ضمن نسق فني يجمع بين الإيقاع والجمال والجدل العقلي.

وتأتي قصيدة المتنبي التي مطلعها **غيري بأكثر هذا الناس ينخدع** مثالًا ناضجًا على هذا التوظيف؛ إذ نلمس فيها مواجهة فكرية وشعورية يشتبك فيها الشاعر مع خصومه ومناوئيه، ويعرض بجرأة مواقفه من الخديعة والتمويه، رافضاً الانصياع لزخارف القول أو مظاهر القوة الخادعة. ومن خلال هذه المواجهة، يشيِّد المتنبي بناءً حجاجيًا متشابك العناصر، تتعاضد فيه الحجج العقلية والوجدانية، ويُستثمر فيه الاستدعاء التاريخي، والصورة البلاغية، والإيقاع الشعري، لأنه امتلاك التأثير في طرف أخر لم يكن مما يستأثر به العقل لأن الكائن الإنساني متشكل كذلك من الأحاسيس كل ذلك استثمره المتنبي لإسناد موقفه والدفاع عن صورة ممدوحه أمام الرأي العام في عصره.

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن آليات هذا البناء الحجاجي في القصيدة، عبر تحليل ورصد أنماط الحجج التي اعتمدها الشاعر، وتبيين طرائق توظيفها في سياقها الشعري والتاريخي، بما يتيح الوقوف على خصوصية التجربة الحجاجية لدى المتنبي، وإبراز ما أضافه إلى الخطاب الشعري العربي من طاقة إقناعية، وقدرة على الجمع بين الفن والبرهان.

---

(٢) كتاب ا لروضتين ١/١٢٩.

نص القصيدة:

غَيري بِأَكثَرِ هَذا الناسِ يَنخَدِعُ إِن قاتَلوا جَبُنوا أَو حَدَّثوا شَجُعوا
أَهلُ الحَفيظَةِ إِلّا أَن تُجَرِّبُهُم وَفي التَجارِبِ بَعدَ الغَيِّ ما يَزَعُ
وَما الحَياةُ وَنَفسي بَعدَ ما عَلِمَت أَنَّ الحَياةَ كَما لا تَشتَهي طَبَعُ
لَيسَ الجَمالُ لِوَجهٍ صَحَّ مارِنُهُ أَنفُ العَزيزِ بِقَطعِ العِزِّ يُجتَدَعُ
أَأَطرَحُ المَجدَ عَن كَتفي وَأَطلُبُهُ وَأَترُكُ الغَيثَ في غِمدي وَأَنتَجِعُ
وَالمَشرَفِيَّةُ لا زالَت مُشَرَّفَةً دَواءُ كُلِّ كَريمٍ أَو هِيَ الوَجَعُ
وَفارِسُ الخَيلِ مَن خَفَّت فَوَقَّرَها في الدَربِ وَالدَمُ في أَعطافِها دُفِعُ
وَأَوحَدَتهُ وَما في قَلبِهِ قَلَقٌ وَأَغضَبَتهُ وَما في لَفظِهِ قَذَعُ
بِالجَيشِ تَمتَنِعُ السادات كُلُّهُمُ وَالجَيشُ بِابنِ أَبي الهَيجاءِ يَمتَنِعُ
قادَ المَقانِبَ أَقصى شُربِها نَهَلٌ عَلى الشَكيمِ وَأَدنى سَيرِها سَرَعُ
لا يَعتَقي بَلَدٌ مَسراهُ عَن بَلَدٍ كَالمَوتِ لَيسَ لَهُ رِيٌّ وَلا شِبَعُ
حَتّى أَقامَ عَلى أَرباضِ خَرشَنَةٍ تَشقى بِهِ الرومُ وَالصُلبانُ وَالبِيَعُ
لِلسَبيِ ما نَكَحوا وَالقَتلِ ما وَلَدوا وَالنَهبِ ما جَمَعوا وَالنارِ ما زَرَعوا
مُخلىً لَهُ المَرجُ مَنصوباً بِصارِخَةٍ لَهُ المَنابِرُ مَشهوداً بِها الجُمَعُ
يُطَمِّعُ الطَيرَ فيهِم طولُ أَكلِهِمُ حَتّى تَكادَ عَلى أَحيائِهِم تَقَعُ
وَلَو رَآهُ حَواريّوهُمُ لَبَنوا عَلى مَحَبَّتِهِ الشَرعَ الَّذي شَرَعوا
ذَمَّ الدُمُستُقُ عَينَيهِ وَقَد طَلَعَت سودُ الغَمامِ فَظَنّوا أَنَّها قَزَعُ
فيها الكُماةُ الَّتي مَفطومُها رَجُلُ عَلى الجِيادِ الَّتي حَولِيُّها جَذَعُ
تَذري اللُقانُ غُباراً في مَناخِرِها وَفي حَناجِرِها مِن آلِسٍ جُرَعُ
كَأَنَّها تَتَلَقّاهُم لِتَسلُكَهُم فَالطَعنُ يَفتَحُ في الأَجوافِ ما تَسَعُ
تَهدي نَواظِرُها وَالحَربُ مُظلِمَةٌ مِنَ الأَسِنَّةِ نارٌ وَالقَنا شَمَعُ
دونَ السِهامِ وَدونَ القُرِّ طافِحَةً عَلى نُفوسِهِمِ المُقَوَرَّةُ المُزَعُ
إِذا دَعا العِلجُ عِلجاً حالَ بَينَهُما أَظمى تُفارِقُ مِنهُ أُختَها الضِلَعُ
أَجَلُّ مِن وَلَدِ الفُقّاسِ مُنكَتِفٌ إِذ فاتَهُنَّ وَأَمضى مِنهُ مُنصَرِعُ
وَما نَجا مِن شِفارِ البيضِ مُنفَلِتٌ نَجا وَمِنهُنَّ في أَحشائِهِ فَزَعُ
يُباشِرُ الأَمنَ دَهراً وَهوَ مُختَبِلٌ وَيَشرَبُ الخَمرَ حَولاً وَهوَ مُمتَقَعُ

كَم من حُشاشَةِ بطريقٍ تَضمَّنَها للباترات أَمينٌ مالَهُ وَرَعُ
يُقاتِلُ الخَطوَ عَنهُ حينَ يَطلُبُهُ وَيَطرُدُ النَومَ عَنهُ حينَ يَضطَجِعُ
تَغدو المَنايا فَلا تَنفَكُّ واقِفَةً حَتّى يَقولَ لَها عودي فَتَندَفِعُ
قُل لِلدُمُستُقِ إِنَّ المُسلِمينَ لَكُم خانوا الأَميرَ فَجازاهُم بِما صَنَعوا
وَجَدتُموهُم نِياماً في دِمائِكُمُ كَأَنَّ قَتلاكُمُ إِيّاهُمُ فَجَعوا
ضَعفى تَعَفُّ الأَيادي عَن مَثالِهِمِ مِنَ الأَعادي وَإِن هَمّوا بِهِم نَزَعوا
لا تَحسَبوا مَن أَسَرتُم كانَ ذا رَمَقٍ فَلَيسَ يَأكُلُ إِلّا المَيِّتَ الضَبُعُ
هَلّا عَلى عَقَبِ الوادي وَقَد صَعِدَت أُسدٌ تَمُرُّ فُرادى لَيسَ تَجتَمِعُ
تَشُقُّكُم بِفَتاها كُلُّ سَلهَبَةٍ وَالضَربُ يَأخُذُ مِنكُم فَوقَ ما يَدَعُ
وَإِنَّما عَرَّضَ اللَهُ الجُنودَ بِكُم لِكَي يَكونوا بِلا فَسلٍ إِذا رَجَعوا
فَكُلُّ غَزوٍ إِلَيكُم بَعدَ ذا فَلَهُ وَكُلُّ غازٍ لِسَيفِ الدَولَةِ التَبَعُ
يَمشي الكِرامُ عَلى آثارِ غَيرِهِمِ وَأَنتَ تَخلُقُ ما تَأتي وَتَبتَدِعُ
وَهَل يَشينُكَ وَقتٌ كُنتَ فارِسَهُ وَكانَ غَيرَكَ فيهِ العاجِزُ الضَرَعُ
مَن كانَ فَوقَ مَحَلِّ الشَمسِ مَوضِعَهُ فَلَيسَ يَرفَعُهُ شَيءٌ وَلا يَضَعُ
لَم يُسلِمِ الكَرُّ في الأَعقابِ مُهجَتَهُ إِن كانَ أَسلَمَها الأَصحابُ وَالشِيَعُ
لَيتَ المُلوكَ عَلى الأَقدارِ مُعطِيَةٌ فَلَم يَكُن لِدَنِيءٍ عِندَها طَمَعُ
رَضيتَ مِنهُم بِأَن زُرتَ الوَغى فَرَأَوا وَأَن قَرَعتَ حَبيكَ البيضِ فَاستَمِعوا
لَقَد أَباحَكَ غِشّاً في مُعامَلَةٍ مَن كُنتَ مِنهُ بِغَيرِ الصِدقِ تَنتَفِعُ
الدَهرُ مُعتَذِرٌ وَالسَيفُ مُنتَظِرٌ وَأَرضُهُم لَكَ مُصطافٌ وَمُرتَبَعُ
وَما الجِبالُ لِنَصرانٍ بِحامِيَةٍ وَلَو تَنَصَّرَ فيها الأَعصَمُ الصَدَعُ
وَما حَمَدتُكَ في هَولٍ ثَبَتَّ لَهُ حَتّى بَلَوتُكَ وَالأَبطالُ تَمتَصِعُ
فَقَد يُظَنُّ شُجاعاً مَن بِهِ خَرَقٌ وَقَد يُظَنُّ جَباناً مَن بِهِ زَمَعُ
إِنَّ السِلاحَ جَميعُ الناسِ تَحمِلُهُ وَلَيسَ كُلَّ ذَواتِ المِخلَبِ السَبُعُ

الظروف الحافة:

مني الجيش الإسلامي بقيادة سيف الدولة بهزيمة من قبل البيزنطيين قريبا من قلعة الحدث فقال للمتنبي هذه القصيدة محاولا الاعتذار لسيف الدولة ومواساته في هذا الخطب

أنواع الحجاج في عينية المتنبي:

تكشف قصيدة المتنبي عن نسق حجاجي متكامل، وفقًا للمقصد والغاية التي أراد الشاعر تثبيتها في ذهن المتلقي وهذا الحجاج لا يظهر في الخطاب كثيرا بشكل مباشر وإنما يوجد فيه مخبوءاً على نحو مضمر، ويمكن تصنيف هذه الحجج، استنادًا إلى ما أفرزته القراءة، في المحاور الآتية:

١. الحجة الأخلاقية (الاحتكام إلى القيم)

وتسمى أحيانا بالحجة المرجعية وهو أن يرجع المحاج الى منظومة القيم والأخلاق التي ينتمي اليها ويؤمن بها، ينطلق المتنبي من الاحتكام إلى القيم الأخلاقية؛ وهذا يمنح خطابه سلطة معنوية ويجعل المتلقي يميل إلى تصديقه، كما في قوله:

أنفُ العزيزِ بقطعِ العِزِّ يُجتدَعُ

فهو هنا يحتج للثبات في المعركة وترك الفرار، ولو احتمل ذلك الموت والمخاطرة بالنفس، بأن المرء العزيز لا يبالي ما أصابه في سبيل العز، ويستعير لذلك صورة "اجتداع الأنف".

٢. الحجة التجريبية (الخبرة الشخصية)

كما ذكر باتريك شارودو في حديثه عن الشرح الذرائعي بأن السبب في الحجاج قد يكون ناشئا عن تجرب شخصية، وهنا يستند الشاعر إلى تجاربه السابقة مع الخصوم والأصدقاء على السواء، مبرزاً أنه جرّب الناس وعرف طباعهم، وأن هذه المعرفة ليست نظرية، بل ثمرة احتكاك مباشر بالوقائع. هذه الحجة تمنح خطابه مصداقية مضاعفة، إذ يتكلم بلسان مَن عاش الأحداث، لا من سمع بها، وهذا صريح في قوله:

وفي التجاربِ بعد الغيّ ما يزَعُ

٣. الحجة التاريخية (الاستدعاء الرمزي للماضي)

وتسمى حجة الاستشهاد حيث يستدعي الشاعر بعض الوقائع التاريخية السابقة ويكون منها حجتا على الخصم، وهنا يوظف المتنبي في القصيدة بعض التجارب ماضية أو المرويات متداولة، ليؤكد أن ما يقوله ليس طارئًا، ولا نتيجة توقع أو تخرص عابر، كما في قوله:

يطمّع الطيرَ فيهم طول أكلهمُ حتى تكادَ على أحيائهمْ تقع

فهذا البيت فيه حجة تاريخية، أن الهزيمة وحصول المقتلة في العدو عوّدت الطير، وهي من البهائم، على التحليق فوقهم، طمعاً في أكل قتلاهم، حتى إنها لتكاد تقع على الأحياء منهم.

٤. الحجة العقلية (القياس المنطقي)

يبني الشاعر بعض أبياته على صيغ قريبة من القياس المنطقي، حيث يقيم علاقة سبب ونتيجة بين المعطيات: إذا كان مكان المرء فوق الشمس، فلا شيء يستطيع أن يحط من شأنه، وذلك في قوله:

مَن كان فوقَ محلّ الشمسِ موضعُه فليس يرفعُه شيءٌ ولا يضَعُ

٥. الحجة الوجدانية (الاستمالة العاطفية)

لا يكتفي المتنبي بالبرهنة العقلية، بل يضخ في خطابه طاقة وجدانية عالية، تؤثر في المتلقي على مستوى الشعور، فتجعله يتبنى موقف الشاعر بدافع التعاطف، ولو لم يقتنع بالبرهان العقلي، وذلك في تصويره للروم أن من قتلوهم من المسلمين كانوا موتى في الأصل وجرحى، وإنما أجهزوا عليهم أو أسروهم وليس فيهم قوة ولا نفع للمسلمين، وليس في ذلك شيء من الظفر أو من الغلبة أو من البطولة، وجعَل قتلَهم كأنما هو عائد بالفائدة على المسلمين، كما في قوله:

لا تحسبوا من قتلتمْ كان ذا رمَقٍ فليس يأكلُ إلا الميّتَ الضبُعُ

وإنما عرّض الله الجنودَ بكمْ لكي يكونوا بلا فَسلٍ إلى رجَعوا

٦. الحجة المعيارية (الاحتكام إلى المثال الأعلى)

يقدّم الشاعر صورة المثل الأعلى في حالة سيف الدولة بعد الاختبار؛ لأن كل شخص قد يُظن شجاعًا لمجرد الثبات في المعركة، لسبب نفسي أو عارض، أو لأنها حالة يضفيها عليه وجوده في المجموعة المحارِبة، كما في قوله:

وما حمدتُك في هولٍ ثبتّ له حتى بلوتُك والأبطال تمتصِع

وقوله:

فقد يُظن شجاعًا من به خرَقٌ...

٧. حجاجية الصورة

تؤدي الصورة أدوارًا داخلية بدخولها في النسيج الحجاجي كصور الجناس والمطابقة وشتى ضروب المجاز التي تتملك السامع وتستحويذ عليه وتدفعه إلى الانخراط في المقاصد الحجاجية وللخطاب تلك المقاصد التي ينشد صاحب الخطاب تحقيقها

وهنا يستخدم المتنبي الطاقة الحجاجية مازجا بين الاستفهام الانكاري على الخصم وبين صورة الجيش الإسلامي الذي وصفه بغاية الشجاعة والاستعداد حيث يقول:

هَلّا عَلى عَقَبِ الوادي وَقَد صَعِدَت أُسدٌ تَمُرُّ فُرادى لَيسَ تَجتَمِعُ

تَـــــشُقُّكُم بِفَتاها كُلُّ سَلهَبَةٍ وَالضَربُ يَأخُذُ مِنكُم فَوقَ ما يَدَعُ

العوامل والروابط الحجاجية في القصيدة:

يقوم البناء الحجاجي في قصيدة المتنبي على منظومة من العوامل والروابط تتكامل لتشكيل نسق جدلي متماسك، يسعى من خلاله الشاعر إلى تثبيت موقفه الرافض للإقرار بالهزيمة المطلقة، والرافض للانخداع بمعظم من كان في الجيش المسلم، والغرض من ذلك تبرئة قائد الجيش من الهزيمة أو التخاذل أو الفرار.

١. العامل السببي

يوظف المتنبي العلاقة السببية بكثافة، فيربط بين قناعاته وأفعال الناس، وهذا الربط السببي يعطي الحجة قوة منطقية، إذ يقدّم موقف الشاعر كخلاصة طبيعية لمعطيات الواقع، وهنا تظهر سمة (السياقية) في طبيعة الحجة اللغوية اذ انها تكتسب حجيتها من السياق الذي وردت فيه فلو وردت في سياق مختلف فلربما لا تكتسب صفة الحجاج، فعلى سبيل المثال، هو لا ينخدع بأكثر الناس، ولكن العامل في ذلك هو أفعالهم:

إن قاتلوا جبُنوا أو حدّثوا شجُعوا

وأنه ما عاد يثق بهم، لأن التجارب تثبت عكس ذلك:

أهل الحفيظة إلا أن تجربهم وفي التجاربِ بعد الغيّ ما يزَع

٢. العامل الاستدلالي

يستند الشاعر إلى وقائع محسوسة وتجارب مباشرة كأدلة تدعم دعواه. ففي قوله:

والجيش بابن أبي الهيجاء يمتنع

يظهر دليل حسي وتجربة مباشرة على أن الهزيمة أو الخلل الذي وقع أو الفرار أو المقتلة ليس سببها سيف الدولة، إذ إنه بلغ من القوة والقدرة على حماية من معه أن الجيش يعتمد عليه ويحتمي به، ثم يأتي بدليل إضافي على هذا الدليل، وهو حسي ومباشر، بقوله:

قاد المقانب أقصى شربها نهلٌ...

إلى أن قال:

حتى أقام على أرباضِ خرشنةٍ تشقى به الروم والصلبان والبيَعُ

فالدليل الحسي هنا: أنه قاد الجيش حتى أقام بأرض عدوّه، وليس وراء ذلك إثبات لأنه عازم وقادر وحازم وذو بأس وقدرة على خوض المعارك والانتصار فيها.

٣. الرابط التضادّي

تتكرر في القصيدة الثنائيات المتقابلة: الجبن/الشجاعة، الحذر/الانخداع، الدواء/الوجع، الري/ الشبع، النجاة/ الانفلات. هذا التضاد يوجِد توتراً حجاجياً يضغط على المتلقي ليتخذ موقفاً بين الطرفين، فيميل غالباً إلى جانب الشاعر.

٤. الرابط السببي المزدوج

أحياناً يجمع المتنبي بين سببين لتدعيم حجة واحدة، كما في المقطع الذي يشير فيه إلى أن الدمستق ذم ظهور الجيش عليه، وهذا الجمع يعزز الإقناع ويصعب الاعتراض على الحجة، في قوله:

فيها الكماة التي مفطومها رجُلٌ　　على الجيادِ التي حوليّها جذَعُ

فظهور الكماة المدربين على القتال منذ عهد الفطام على الخيل المدرّبة على الفروسية منذ بلغت الحول، هذا تركيب سببي جعل الدمستق يرتاع من مرأى الجيش المسلم.

٥. العامل الشعوري

تعمل مشاعر السخرية والمرارة، كرابط داخلي بين الحجج، فهي تمنحها نبرة واحدة متسقة، وتسمح بانتقال سلس من الحجة إلى أختها، مثل قوله:

إذا دعا العلجُ علجًا حال بينهما　　أظمى تفارقُ منه أختَها الضِّلَعُ

فهو هنا يسخر من صورة العلج الرومي الذي يستغيث بصاحبه في أثناء القتال، فتحول بينهما الرماح المشرعة التي تخترق الأضلاع، فلا يتمكن أحدهما من إغاثة صاحبه أو الرد عليه، وهذا فيه توصّل إلى حجة قوة المسلمين وتمكنهم من الإثخان في الروم.

٦. الرابط الإيقاعي

يستثمر الشاعر الوزن والقافية لتوكيد الحجج وربط بعضها ببعض، فالجرس الموسيقي المتكرر يقوّي حضور الفكرة ويجعلها أكثر رسوخاً في الذاكرة. كقوله:

الدهر معتذرٌ، والسيفُ منتظرٌ

وقوله:

للسبي ما نكحوا، والقتلِ ما ولَدو　　والنهب ما جمعوا، والنار ما زرعوا

فهذان الموضعان من القصيدة اختصا بنوع من الإيقاع، وهو بناء جملة حجاجية من كل جملة إيقاعية، فالقصيدة من بحر البسيط، وكل جملة إيقاعية من هذا البحر على وزن **مستفعلن فعلن**، فأراد المتنبي أن يوظف كل وحدة إيقاعية على نحو تظهر معها فيها جملة حجاجية مستقلة: **الدهر معتذر** (مستفعلن فعلن)، **والسيف منتظرٌ** (مستفعلن فعلن)، وهكذا.

الأقطاب التلفظية:

تقوم قصيدة المتنبي على نسق تلفظي يتبدّل فيه موقع المتكلم والمخاطَب والغائب، بما يخدم الغرض الحجاجي ويكثّف من فاعلية الإقناع. والقطب التلفظي هنا أداة لتوجيه الحجة وتوزيع السلطة الكلامية داخل النص.

١. قطب المتكلم

يحضر المتكلم (الشاعر) حضوراً قوياً بوصفه صاحب الموقف الحجاجي، مستخدماً ضمير المتكلم المفرد "أأطرح"، "وأطلبه"، "وأترك"، "رضيتُ"، "حمدتُك"، "بلوتُك" ليثبت أن ما يقوله قائم على تجربة شخصية مباشرة.

٢. قطب المخاطَب

ينتقل المتنبي إلى مخاطبة جماعة غير محددة أو خصوم ضمنيين، مستخدماً صيغة الغيبة الموجهة كخطاب غير مباشر: "لا تحسبوا" "أسرتم"، "لكم"، "وجدتموهم"، "دمائكم"، "قتلاكم"، "بكم"، "يأخذ منكم".

كذلك فإن الخطاب موجه إلى القارئ/المستمع: "تجربَهم"، "قل للدمستق".

وكذلك فإنه يخاطب سيف الدولة: "وأنت تخلق"، "تبتدع"، "وهل يشينك"، "كنت فارسه"، "غيرك"، "زرتَ الوغى".

٣. قطب الغائب

يستدعي المتنبي شخصيات أو نماذج غائبة لتكون موضوع الحجة أو دليلها، ويجعلها كذلك مركزاً لتصوير السلوك المرفوض:

في الأبيات التي يشير فيها إلى "قاتلوا" أو "جبنوا"، "حدثوا"، "شجعوا"، "تجربهم"، "بينهما"، "وهو ممتقع" تكون الإشارة إلى الغائبين إطاراً لإبراز انحطاطهم في مقابل رفعة المتكلم وممدوحه.

٥. الأثر الحجاجي للتحولات

هذا التنقّل بين ضمائر التلفظ يوجِد إحساساً بالشمول والموضوعية، إذ يبدو الشاعر كأنه يقرّر حجة يجب أن يتقبلها ويقرّ بها الجميع، حيث يُستدعى الغائب إلى المحاجّة ثم يُخاطب كأنه حاضر، وكأن الحجاج يجري بحضوره، وهذا ما يؤدي غرض القصيدة الأساسي، وهو تعزية سيف الدولة، وتضميد جراحه، ورفع الملام عنه في الهزيمة أو المقتلة أو الأسر الذي لحق بالمسلمين، وإلحاق العار والجُبن والإخفاق بخصومه، وبالمتخاذلين من جيشه.

السلّم الحجاجي:

يعد السلم الحجاجي من أهم العناصر في نظرية الحجاج الحديثة وهو يقوم على العلاقة التراتبية بين الحجج ومعنى ذلك انه إذا قامت علاقة ترتيبية معينة بين مجموعة من الحجج المؤدية الى نتيجة معينة فأنها تنتمي الى نفس السلم الحجاجي ويتسم بسمتين:

أ-كل قول يرد في السلم يكون القول الذي يعلوه اقوى منه

ب-إذا كان قول ما يؤدي الى نتيجة معينة فإن القول الذي يعلوه درجة يؤدي اليها والعكس غير صحيح

ويتشكل السلّم الحجاجي هنا على درجات متتابعة: يبدأ المتنبي بتأسيس أطروحته الأخلاقية، ثم يثبت معيار الكرامة، ثم يُعَرِّف البطل/المرجع (سيف الدولة)، ثم يقلب سردية الواقعة، ويعلّل الهزيمة ظرفيًّا، ويضع شروط القتال الشريف، قبل أن يقدّم درساً قدريًّا تعبويًّا، وينهي بتتويج معياريّ يردّ التقدير ويُغلق الحِجاج.

الدرجة الأولى: تأسيس القضية (قاعدة الخبرة والاختبار)

غَيري بِأَكثَرِ هَذا الناسِ يَنخَدِعُ إِن قاتَلوا جَبُنوا أَو حَدَّثوا شَجُعوا

يفتتح بملاحظة اجتماعية مقرونة بتجربة: ادّعاء الشجاعة يسقط عند الامتحان.

أَهلُ الحَفيظَةِ إِلّا أَن تُجَرِّبُهُم وَفي التَجارِبِ بَعدَ الغَيِّ ما يَزَعُ

التجربة وازعٌ كافٍ لفرز الأقوال من الأفعال. هذه قاعدة تحتية للسلّم كله.

الدرجة الثانية: معيار الكرامة فوق المكاسب

وَما الحَياةُ وَنَفسي بَعدَ ما عَلِمَت أَنَّ الحَياةَ كَما لا تَشتَهي طَبَعُ

إدراك طبيعة الدنيا يمهّد لاختيار المبدأ.

لَيسَ الجَمالُ لِوَجهٍ صَحَّ مارِنُهُ أَنفُ العَزيزِ بِقَطعِ العِزِّ يُجتَدَعُ

معيار الجمال الحقيقي: عزٌّ يُصان لا وجه حسَن.

أَأَطرَحُ المَجدَ عَن كَتفي وَأَطلُبُهُ وَأَترُكُ الغَيثَ في غِمدي وَأَنتَجِعُ

استعارتان تُحكمان المبدأ: المجد محمول على الكتف، أي السلاح، والغيث (السيف) حاضر.

الدرجة الثالثة: تعريف مرجع الحُجّة (البطل/السلطة القيمية)

وَالمَشرَفِيَّةُ لا زالَت مُشَرَّفَةً دَواءُ كُلِّ كَريمٍ أَو هِيَ الوَجَعُ

السيف دواء الكريم؛ الشرعية المطلقة والنهائية للسيف ماثلة.

وَفارِسُ الخَيلِ مَن خَفَّت فَوَقَّرَها في الدَربِ وَالدَمُ في أَعطافِها دُفِعُ

تعريف الفارس الحقيقي معياراً لا مجرد لقب يُتلقّب به.

بِالجَيشِ تَمتَنِعُ السادات كُلُّهُمُ وَالجَيشُ بِابنِ أَبي الهَيجاءِ يَمتَنِعُ

قلب مركز الامتناع: القادة يحتمون بالجيش، والجيش يمتنع بالبطل.

قادَ المَقانِبَ أَقصى شُربِها نَهَلٌ عَلى الشَكيمِ وَأَدنى سَيرِها سِرَعُ

ثبتت كفاءة القيادة برسم عمليّ دقيق.

حَتّى أَقامَ عَلى أَرباضِ خَرشَنَةٍ تَشقى بِهِ الرومُ وَالصُلبانُ وَالبِيَعُ

نقل مركز المعركة إلى تخوم العدو؛ هذا ضغطٌ ماديّ معنوي ورمزي، ويثبت حجة المادح لسمو الممدوح فوق المعايب.

الدرجة الخامسة: تبرير الواقعة وتبرئة المركز وتجريم الأطراف

قُل لِلدُمُستُقِ إِنَّ المُسلِمينَ لَكُم خانوا الأَميرَ فَجازاهُم بِما صَنَعوا

توجيه خطاب خصامي مباشر يُعيد توزيع اللوم.

وَجَدتُموهُم نِياماً في دِمائِكُم كَأَنَّ قَتلاكُمُ إِيّاهُمُ فَجَعوا

التعليل ظرفيّ: مباغتتكم إياهم كانت في موضع استرخاء وراحة، وليس هذا ظفراً.

ضَعفى تَعِفُّ الأَيادي عَن مِثالِهِمِ مِنَ الأَعادي وَإِن هَمّوا بِهِم نَزَعوا

أي إن من أصبتموهم خارج عيّنة القياس القتالي المعتبر.

لا تَحسَبوا مَن أَسَرتُم كانَ ذا رَمَقٍ فَلَيسَ يَأكُلُ إِلّا المَيِّتَ الضَبُعُ

تفكيك مكاسب العدو: أسرٌ بلا قيمة قتالية.

الدرجة السادسة: إعلان شرط القتال الشريف والإنذار بالمآل

هَلّا عَلى عَقَبِ الوادي وَقَد صَعِدَت أُسدٌ تَمُرُّ فُرادى لَيسَ تَجتَمِعُ

دعوة إلى اختبارٍ نزيه عند الاستعداد التام من المسلمين.

الدرجة السابعة: التسويغ القدري والمآلي والتربية القتالية

وَإِنَّما عَرَّضَ اللَهُ الجُنودَ بِكُم لِكَي يَكونوا بِلا فَسلٍ إِذا رَجَعوا

تحويل الواقعة إلى تدريبٍ تطهيري من الفسالة، ليتخلص الجيش به من الخاملين العالة على المسلمين وعلى سيف الدولة.

فَكُلُّ غَزوٍ إِلَيكُم بَعدَ ذا فَلَهُ وَكُلُّ غازٍ لِسَيفِ الدَولَةِ التَبَعُ

تثبيت الحقّ والاقتصاص في "الجولات المقبلة" وإعلان ريادة المرجع (سيف الدولة).

الدرجة الثامنة: التتويج المعياريّ وإغلاق الحِجاج

يَمشي الكِرامُ عَلى آثارِ غَيرِهِمِ وَأَنتَ تَخلُقُ ما تَأتي وَتَبتَدِعُ

هنا يتم ختم الحجة بخاتَم معياريّ: سيف الدولة مُبدِئ لا تابع.

لَم يُسلِمِ الكَرُّ في الأَعقابِ مُهجَتَهُ إِن كانَ أَسلَمَها الأَصحابُ وَالشِيَعُ

ثبات "المركز" عند انفضاض "الأطراف" عنه.

الدَهرُ مُعتَذِرٌ وَالسَيفُ مُنتَظِرٌ وَأَرضُهُم لَكَ مُصطافٌ وَمُرتَبَعُ

إعادة معايرة الزمن والمكان لمصلحة البطل الممدوح.

وَما الجِبالُ لِنَصرانٍ بِحامِيَةٍ وَلَو تَنَصَّرَ فيها الأَعصَمُ الصَدَعُ

إبطال رهان التحصّن بالطبيعة.

خلاصة السُّلّم:

التدرّج يبدأ بقاعدة خبرةٍ، ويصعد إلى معيار الكرامة، ثم يرسُم مرجع القوة، ويقلب رواية الواقعة ببلاغة تصويرية، ويعلّل ظرفيًا ليحفظ صورة "المركز"، ثم يضع شرط الاختبار النزيه، فالتسويغ القدري، فالتتويج المعياري الذي يُغلق الحِجاج على أطروحة واضحة: الكرامة أصلٌ، والبطل معيار، والواقعة تدريبٌ يمهّد لدورة تفوّقٍ لاحقة.

نظام الأطروحة في النص:

يُبنى النص الحجاجي في قصيدة المتنبي العينية، التي مطلعها **غيري بأكثر هذا الناس ينخدعُ**، على أطروحة مركزية تتفرع عنها أطروحات فرعية، تشكل معًا البنية الجدلية التي ينهض عليها النص الشعري.

١. الأطروحة المركزية

تتمثل الأطروحة المركزية في التنبيه إلى فساد أحوال الناس، وندرة من يحفظ العهد ويثبت على المروءة، والتحذير من الانخداع بالمظاهر، وأن ذلك هو سبب الخسارة التي لحقت بالمسلمين، وليس سيف الدولة ولا سياسته ولا خطته العسكرية ولا تقديره للأمور ولا سلوكه في المعركة، وهذا مسار يؤدي إلى تبرئته وتعزيته من نتائج الواقعة وتبعاتها، ووعدٌ له بالنصر في لواحق المعارك مع الروم، وجعل كل معركة مستقبلية ينتصر فيها المسلمون عليهم أثرًا ونتيجة مبنية على أساس هذه المعركة الاستثنائية.

يقرر الشاعر منذ المطلع:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدعُ إن قاتلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا

فهو يؤسس من أول بيت لموقف رافض لتصديق المظاهر الكاذبة أو الانبهار بالأقوال البطولية التي لا يصدقها الفعل. هذه الأطروحة من المحاور التي تدور حولها الحجاجات، إذ يكرّ الشاعر على أمثلة وقرائن تثبت صحة دعواه.

٢. الأطروحات الفرعية

- أن سيف الدولة هو من يحمي الجيش ولا يحتمي هو بالجيش

يعرضه الشاعر حين يبيّن أن الخلل في الجيش وليس في سيف الدولة.

والجيش بابن أبي الهيجاءِ يمتنعُ

وهنا الحجة قائمة على المفارقة، لكشف حقيقة الموقع الملتبس في نظر الشاعر.

- كثرة هزائم الروم على أيدي المسلمين

يصرح بها في قوله:

يُطَمِّعُ الطَيرَ فيهِم طولُ أَكلِهِمُ حَتّى تَكادَ عَلى أَحيائِهِم تَقَعُ

إذ يستدل بهزائمهم الماضية على عدم صلاحية عاقب أمرهم للانتصار على المسلمين، فحتى الطير عرفت منهم طول الانهزام على أيدي المسلمين، فكيف بالعقلاء!

- عدم النيل من المسلمين الأقوياء

يقرره بقوله:

لا تَحسَبوا مَن أَسَرتُم كانَ ذا رَمَقٍ فَلَيسَ يَأكُلُ إِلّا المَيِّتَ الضَبُعُ

وفيه حجة مبنية على المشترك الفروسي بين المقاتلين من جميع الأمم، إذ لا يعد قوياً ولا فارساً مقتدراً من يأسر من هو بمكان الجيفة من الناس، التي لا يأكلها إلا الضبع.

- **وقوع الخيانة من الضعفاء في الجيش سببت الهزيمة الاستثنائية**

يصرح بها في قوله:

قُل لِلدُمُستُقِ إِنَّ المُسلَمينَ لَكُم خانوا الأَميرَ فَجازاهُم بِما صَنَعوا

والمقصود بالمسلمين هنا "المستسلمون" و"المتخاذلون"، بدليل أنه جاء بعدها بالجار والمجرور "لكم"، أي: المستسلمون لكم.

٣. الربط بين الأطروحات

تترابط الأطروحات الفرعية بخيط منطقي واحد هو إثبات فساد الظاهر الإنساني إذا خالفه الباطن، وظهور ذلك في المعركة، وفي أن سيف الدولة قائد متمكن يحتمي به الجيش لا العكس، وأن ما حصل كان بسبب تخاذل وخيانة، وأن انتصار الروم إنما هو "فلتة" تاريخية، ووقائع المعارك بينهم وبين المسلمين تشهد بذلك، ثم إن هذا الأمر سيعتدل ويُعدّل ويقوّم في المقبل من المعارك والوقائع.

٤. موقع الشاعر في الحجاج

يضع الشاعر نفسه في موقع الشاهد المجرب لا المتفرج، فهو يقرر أنه لا ينخدع كما ينخدع غيره، بل جرّب وعرف، وأنه رأى وشهِد، ورضي، وبلا الأمور، وحمِد حقيقة سيف الدولة وطبيعته. هذا الموقع يمنحه سلطة حجاجية مضاعفة، إذ يجمع بين الخبرة والقدرة على صياغة الدليل شعرياً.

تركيب ونتائج:

أظهرت القراءة الحجاجية لقصيدة المتنبي العينية أن بنيتها تقوم على نسق متصاعد من الدعوى وتدعيمها، يراوح بين الحجة العقلية والحجة العاطفية، ويستعين بالتصوير البلاغي كوسيط لإقناع المتلقي. اعتمد الشاعر على بناء أطروحته من خلال:

- تحديد الموقف منذ البيت الأول؛ ليعلن مسافة فاصلة بينه وبين الجمهور.
- تعزيز الموقف بالحجج التجريبية والتاريخية، إذ استحضر أمثلة من واقع الحرب والتجربة الشخصية لتأكيد أهلية رأيه.
- توظيف الروابط الحجاجية مثل التعليل والتضاد، وهذا ما منح النص قوة في الانتقال من مقدمة إلى نتيجة.

- توزيع الأقطاب التلفظية بين المتكلم (الشاعر) والمخاطَب (الممدوح، الخصوم، الجمهور)، بما يحافظ على التوتر الحواري ويثبّت حضور الذات الشاعرة.
- تدرج السلّم الحجاجي من الملاحظات الجزئية إلى الأحكام الكلية، في نسق تصعيدي يصل إلى ذروة إثبات الذات.

وقد خلص التحليل إلى أن **القصيدة ليست مجرد مدح أو هجاء، بل خطاب حجاجي متكامل يوظف أغراض المديح والهجاء والحماسة وأدوات البلاغة لخدمة مقولة الشاعر حول حقيقة الواقعة وتبرئة ممدوحه وموقفه**، مع ربط ذلك بسياق اجتماعي وسياسي أوسع.

الخاتمة:

تبيّن من خلال هذه الدراسة أن قصيدة المتنبي العينية **غيري بأكثر هذا الناس ينخدع** تمثل نصًّا حجاجيًّا متكامل البناء، يجمع بين وضوح الدعوى ودقة الاستدلال وقوة الأداء الشعري. فقد أحسن المتنبي ترتيب خطابه على نحو يفضي كل جزء منه إلى ما يليه، فابتدأ بإعلان موقفه المغاير للجمهور، ثم دعم هذا الموقف بحجج متنوّعة استقاها من التجربة الحياتية والوقائع الحربية والمعايير العقلية، مستعينًا بروابط حجاجية محكمة من تعليل وتقابل، وبأقطاب تلفظية تُبقي المخاطب حاضرًا في النص وتغذّي التوتر الحواري. وقد أظهرت القراءة أن البناء الحجاجي في هذه القصيدة لا ينفصل عن بُعدها الفني؛ فالصور البلاغية استُعملت كأدوات تفكير وبرهنة، تُبرز التميز الفردي للشاعر وتؤكد فرادته الفكرية والاجتماعية. كما أنّ تدرج السلّم الحجاجي مكّن النص من بلوغ ذروة الإقناع، وجعل موقف الشاعر يظهر في صورة يقين يفرض نفسه على المتلقي.

وعليه، فإن هذه القصيدة تقدم نموذجًا رفيعًا لما يمكن أن يبلغه الشعر العربي من اندماج الحجاج بالخطاب، وتؤكد أن المتنبي كان واعيًا بأثر الكلمة وقدرتها على تثبيت المواقف وإدارة الصراع الرمزي، في زمن تتداخل فيه المصالح والقيم. إنها نصٌّ يثبت أن الشعر، حين يتقن أدوات الحجاج، يصبح أكثر من فن، ويغدو فعلًا من أفعال الفكر والموقف.

المصادر والمراجع:

أولاً المصادر:

١- شرح ديوان المتنبي ـــ لأبي الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري ـــ الطبعة الأولى ١٤٩هـ ــ ١٩٩٩م، دار الرائد العربي.
٢- شرح ديوان المتنبي، عبد الوهاب البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٣- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على جمال الدين بن منظور الأفريقي، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

ثانياً المراجع:

٤- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، د. محمد العمري، الطبعة الأولى، ١ / ١ / ٢٠١٢م، دار أفريقيا الشرق.
٥- التداولية والحجاج، صابر الحباشة، الطبعة الأولى، صفحات للدراسات والنشر، دمشق – سوريا، ٢٠٠٨م.
٦- الحجاج بين النظرية والأســـلوب، باتريك شـــارودو، ترجمة أحمد الودرني، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ٢٠٠٩م.
٧- الحجاج في البلاغة المعاصرة، د.محمد سالم الطلبة، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ٢٠٠٨م.
٨- الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة: بنيته وأساليبه، ســـامية للدريدي، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ١٤٢٨ه – ٢٠٠٨م.
٩- الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم حافظ إســماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ٢٠١٠م.
١٠- كتاب الروضـتين في أخبار الدولتين النورية والصـلاحية، أبو شـامة المقدسـي، مطبعة وادي النيل، القاهرة – مصر، ١٢٨٨م.
١١- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، الطبعة الأولى، دار الأحمدية، للدار البيضـــاء، ١٤٢٦ه – ٢٠٠٦م.